



أشهر المفتين من أهل الكوفة



obeikandi.com

• ومن أهل الكوفة:

- سعيد بن جبير - رضى الله عنه -

هو سعيد بن جبير فتى حبشى فى الأصل، عربى الولاء لم ينقص لونه الأسود وشعره "المفلل" من قدره وشخصيته وخاصة إنه أدرك منذ نعومة أظفاره قيمة العلم والتقى حتى أصبح من أجل فقهاء العلم فى عصره.

وقد أخذ الفتى سعيد بن جبير العلم عن طائفة من كبار الصحابة من أمثال أبى سعيد الخدرى، وعدى بن حاتم الطائى.. وأبى موسى الأشعرى، وأبى هريرة الدوسى.. وعبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وعنهم أجمعين.

بيد أن أستاذه الأكبر، ومعلمه الأعظم كان عبد الله بن عباس، حبر أمة محمد، وبحر علمها الزاخر.

لزم سعيد بن جبير عبد الله بن عباس لزوم الظل لصاحبه.. فأخذ عنه القرآن وتفسيره، والحديث وغريبه.. ونفقه على يديه فى الدين، وتعلم منه التأويل.. ودرس عليه اللغة، فتمكن منها أعظم التمكن.. حتى غدا وما على ظهر الأرض أحد من أهل زمانه إلا وهو محتاج إلى علمه.

ثم تنقل فى ديار المسلمين بحثاً عن المعرفة فلما اكتمل له ما أراد من العلم، اتخذ "الكوفة" داراً له ومقاماً. وغدا لأهلها معلماً وإماماً.

كان يؤم الناس فى رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود.. وأخرى بقراءة زيد بن ثابت.. وثالثة بقراءة غيرهما، وهكذا.

وكان إذا صلى منفرداً فربما قرأ القرآن كله فى صلاة واحدة، وكان إذا مر بقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ * إِذِ الْأَعْلَالُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ * فى الحَبِيبِ تُرَفَّى النَّارُ يُسْجَرُونَ ﴿١﴾. أو مر بنحوها من آيات الوعد والوعيد، اقتشع جلده.. وتصدع فؤاده.. وسالت دموعه.. ثم لا يزال يبدأ فيها ويعيد حتى يوشك أن يقضى نحبه.

وقد دأب على شد رحاله إلى البيت الحرام كل عام مرتين.. مرة في رجب محرماً بعمرة، وأخرى في ذى القعدة محرماً بحج.

وقد كان طلاب العلم وشداة الخير والبر والنصح، يتوافدون على "الكوفة" لينهلوا من مناهل سعيد بن جبير الثرية العذبة.. ويغترفوا من هديه القويم.

وقد كانت "الكوفة" حين اتخذها سعيد بن جبير دار إقامة له، خاضعة للحجاج ابن يوسف النقفى.. إذ كان الحجاج يومئذ والياً على "العراق"، والمشرق، وبلاد ما وراء النهر، وكان يتربع حينئذ على ذروة سطوته وسطوانته.. وذلك بعد أن قتل عبد الله بن الزبير، وقضى على حركته.

وأخضع "العراق" لسلطان بنى "أمية"، وأخمد نيران الثورات القائمة هنا وهناك.. وأعمل السيف في رقاب العباد.. وأشاع الرعب في أرجاء السبلاد.. حتى امتلأت القلوب رهبة منه وخشية من بطشه.

ثم شاء الله أن يقع صدام بين الحجاج بن يوسف النقفى وبين عبد الرحمن ابن الأشعث أحد كبار قواده.

وأن يتحول الصدام إلى فتنة أكلت الأخضر واليابس.. وتركت في جسم المسلمين جراحات غائرة.

اغتنم عبد الرحمن بن الأشعث هذه الفرصة، ودعا الفقهاء والقراء إلى مؤازرته.

فاستجابت له كوكبة من جلة التابعين وأئمة المسلمين، وعلى رأسهم سعيد ابن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى.. والشعبي، وأبو البختري، وغيرهم، وغيرهم الكثيرون.

ودارت رحى الحرب بين الفريقين، وكان النصر فيها أول الأمر لابن الأشعث ومن معه على الحجاج وجنوده.

ثم بدأت كفة الحجاج ترجح شيئاً فشيئاً.. حتى هزم ابن الأشعث هزيمة منكراً.. وفر ناجياً بنفسه. واستسلم جيشه للحجاج وجنوده.

أمر الحجاج مناديه أن ينادى في المقاتلين المهزومين، وأن يدعوهم لتجديد بيعته.

فاستجاب أكثرهم له، وتوارى بعضهم عنه.

وكان بين المتوارين سعيد بن جبير - رضى الله عنه وأرضاه-.

وظل يضرب فى أرض الله الواسعة مستخفياً عن الحجاج وعيونه حتى لجأ إلى قرية صغيرة فى أراضى مكة.

وبقى على حاله هذه عشر حجج كاملات كانت كافية لأن تطفئ نيران الحجاج المتقدة فى قلبه، وأن تزيل ما فى نفسه من ضغن عليه.

بيد أنه حدث ما لم يكن يتوقعه أحد.. ذلك أنه قدم على مكة وال جديد من ولاية بنى "أمية" .. هو "خالد بن عبد الله القسرى".

فتوجس أصحاب سعيد بن جبير خيفة منه، لما كانوا يعرفون من سوء سيرته، وتوقعوا الشر على يديه.

فجاء بعضهم إلى سعيد وقالوا له:

إن هذا الرجل قدم مكة، وإنا - والله- لا نأمنه عليك.. فاستجب لطلبنا، وأخرج من هذا البلد.

فقال: والله لقد فررت حتى صرت استحي من الله.. ولقد عزمت على أن أبقى فى مكانى هذا.. وليفعل الله بى ما يشاء.

وبالفعل ما أن علم بمكان سعيد بن جبير حتى أرسل إليه سرية من جنوده، وأمرهم أن يسوقوه مقيداً إلى الحجاج فى مدينة "واسط"^(١).

فأطبق الجند على بيت الشيخ.. وألقوا القيد فى يديه على مرأى من بعض أصحابه.. وآذنوه^(٢) بالرحيل إلى الحجاج، فتلقاهم هادئ النفس مطمئن القلب.

ثم التفت إلى أصحابه وقال:

ما أرانى إلا مقتولاً على يدي ذلك الظالم .. ولقد كنت أنا وصاحبان لى فى

(١) واسط: مدينة واقعة بين البصرة والكوفة، وقد سميت بذلك لأنها تقع فى وسطهما، فتبعد عن كل منهما خمسين ميلاً.

(٢) آذنوه: دعوه وأعلموه.

ليلة عبادة، فاستشعرنا حلاوة الدعاء فدعونا الله بما دعونا ، وتضرعنا إليه بما شاء أن نتضرع.. ثم سألنا الله عز وجل أن يكتب لنا الشهادة، وقد رزقها الله لصاحبي كليهما، وبقيت أنا أنتظرها.

ثم إنه ما كاد ينتهي من كلامه حتى طلعت عليه بنية صغيرة له، فرأته مقيداً والجند يسوقونه، فتشبتت به، وجعلت تبكي وتنشج.. فنحاهما عنه برفق، وقال لها: قولي لأمك يا بنية: إن موعدنا الجنة إن شاء الله تعالى.. ثم مضى.

بلغ الجند بالإمام الحبر العابد الزاهد، التقى النقى الورع مدينة "واسط"، وأدخلوه على الحاج.

فلما صار عنده نظر إليه في حقد وقال: ما اسمك؟.

فقال: سعيد بن جبير.

فقال: بل شقى بن كسير^(١).

فقال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

فقال: ما تقول في محمد؟.

قال: تعنى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟!

فقال: نعم.

قال: سيد ولد آدم، النبي المصطفى.. خير من بقى من البشر، وخير من مضى.. حمل الرسالة، وأدى الأمانة.. ونصح الله، وكتابه، ولعامة المسلمين، وخاصتهم.

قال: فما تقول في أبى بكر؟.

قال: هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ، ذهب حميداً، وعاش سعيداً.. ومضى على منهاج النبي ﷺ، لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول في عمر؟!

قال: هو الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل.. وخيرة الله وخيرة

رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبيه.. فعاش حميداً، وقتل شهيداً.
قال: فما تقول في عثمان.

قال: هو المجهز لجيش العسرة^(١).. الحافر بئر^(٢) رومة.. المشتري بيتاً لنفسه في الجنة.. صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه.

ولقد زوجه النبي بوحى من السماء، وهو المقتول ظلماً.

قال: فما تقول في علي؟!

قال: ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان.. وهو زوج فاطمة البتول^(٣).. وأبو الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة.

قال: فأى خلفاء بنى "أمية" أعجب لك؟

قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: فأيهم أرضى للخالق؟

قال: علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما تقول في؟

قال: أنت أعلم بنفسك.

قال: بل أريد علمك أنت.

قال: إذن يسوعك ولا يسرك.

قال: لا بد من أن أسمع منك.

قال: إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى.. تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهى تحمك في الهلكة.. وتدفعك إلى النار دفعا.

قال: أما والله لأقتلك.

(١) جيش العسرة: جيش غزوة تبوك.

(٢) بئر رومة: بئر فى عقيق المدينة المنورة اشتراها عثمان بن عفان بمائة ناقة، وتصدق بها على المسلمين.

(٣) البتول: النقية الطاهرة.

قال: إذن تفسد على دنياي، وأفسد عليك آخرتك.

قال: اختر لنفسك أي قتلة شئت.

قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج.. فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟

قال: إن كان عفو فمن الله تعالى.. أما أنت فلا براءة^(١) لك ولا عذر.

فاغتاط الحجاج وقال: السيف والنطع^(٢) يا غلام.

فتبسم سعيد، فقال له الحجاج:

وما تبسمك؟!.

قال: عجبت من جراتك على الله وحلم الله عليك.

فقال: اقتله يا غلام.

فاستقبل القبلة وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ^(٣) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا^(٤) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٥)﴾.

فقال: احرفوا^(٦) وجهه عن القبلة.

فقال: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا^(٧) قَوْمَ اللَّهِ^(٨) وَجْهَ اللَّهِ^(٩)﴾.

فقال: كبوه^(١٠) على الأرض.

فقال: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى^(١١)﴾.

فقال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أدعى^(١٢) منه لآيات القرآن.. فرفع

سعيد كفيه وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى.

(٢) النطع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالقتل.

(٤) حنيفاً: مائلاً إلى الدين القيم.

(٦) احرفوا وجهه: أميلوا وجهه.

(٨) ثم وجه الله: هناك قبيلة الله التي ترضاه.

(١٠) كبوه على الأرض: أقبلوه على الأرض.

(١٢) أدعى منه: استحضاراً منه.

(١) لا براءة لك: لا عفو من عندك.

(٣) فطر: خلق وأنشأ.

(٥) سورة الأنعام الآية ٧٩.

(٧) تولوا: تتجهوا.

(٩) سورة البقرة الآية ١١٥.

(١١) سورة طه الآية ٥٥.

لم يمض على مصرع سعيد بن جبیر غير خمسة عشر يوماً حتى حم^(١) الحجاج، واشتدت عليه وطأة المرض.

فكان يغفو ساعة ويفيق أخرى.. فإذا غفا غفوة صغيرة، استيقظ مذعوراً وهو يصيح:

هذا سعيد بن جبیر آخذ بخناقى.. هذا سعيد بن جبیر يقول: فيم قتلتنى؟!..
ثم يبكى ويقول:

مالى ولسعيد بن جبیر!!! ردوا عنى سعيد بن جبیر.. فلما قضى نحبه وورى ترابه، رآه بعضهم فى الحلم فقال له:

ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟.

فقال: قتلنى الله بكل امرئ قتلة واحدة.. وقتلنى بسعيد بن جبیر سبعين قتلة.

* * *

عامر بن شرحبيل الشعبي - رضى الله عنه -

ولد عامر الشعبي في "الكوفة" وفيها نشأ وهذا في خلافة الفاروق رضوان الله عليه لكن المدينة المنورة كانت مهوى فؤاده ومطمح نفسه، فكان يقصدها من حين لآخر ليلقى صحابة رسول الله ﷺ، وليأخذ عنهم، كما كان الصحابة الكرام يؤمنون "الكوفة" ليتخذوها منطلقاً للجهاد في سبيل الله، أو داراً لإقامتهم.

فاتيح له أن يلقي نحواً من خمسمائة من الصحابة الكرام، وأن يروى عن عدد كبير من جلتهم من أمثال: علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وزيد ابن ثابت.. وعبادة بن الصامت، وأبي موسى الأشعري، وأبي سعيد الخدري.. والنعمان بن بشير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس.. وعدى بن حاتم، وأبي هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وغيرهم وغيرهم.

وقد كان الشعبي فتى متوقد الذكاء، يقظ الفؤاد، دقيق الفهم، آية في قوة الحافظة والذاكرة.. فقد روى عنه أنه قال:

ما كتبت سوداء في بيضاء قط، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، ولا سمعت من امرئ كلاماً ثم أحببت أن يعيده عليّ.

وقد كان الفتى مولعاً بالعلم، شغوفاً بالمعرفة، يبذل في سبيلهما النفس والنفيس، ويستسهل من أجلهما المصاعب.

وقد بلغ من علمه أنه كان يقول:

أقل شيء تعلمته الشعر.. ولو شئت لأنشدتكم منه شهراً دون أن أعيد شيئاً مما أنشدته.

وكانت تعقد له حلقة في جامع "الكوفة"، فيلتف الناس حوله زمراً زمراً، وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء يروحون ويغدون بين أظهر الناس.

بل إن عبد الله بن عمر ؓ سمعه ذات مرة يقص على الناس أخبار المغازي^(١) بخفاياها ودقائقها، فأرهب إليه سمعه وقال:

لقد شهدت بعض ما يقصه بعيني وسمعته بأذني، ومع ذلك فهو أروى له مني.

(١) المغازي: الغزوات الإسلامية.

وشواهد سعة علم الشعبي وحضور ذهنه، غزيرة وفيرة.

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، كتب إلى الحجاج عامله على "العراق": "أن ابعث إلى رجلاً يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميراً وجليساً.."

فبعث إليه بالشعبي، فجعله من خاصته، وأخذ يفرع إلى علمه في المعضلات، ويعول على رأيه في الملمات، ويبعثه سفيراً بينه وبين الملوك.

ولقد بلغ الشعبي في العلم منزلة جعلته رابع ثلاثة في عصره.

فقد كان الزهري يقول: العلماء أربعة.. سعيد بن المسيب في المدينة، وعامر الشعبي في الكوفة، والحسن البصري في البصرة، ومكحول في الشام.

لكن الشعبي كان - لتواضعه - يخل إذا خلع عليه أحد لقب "العالم".

ولقد أوتى الشعبي من بلاغة الكلام، وحسن التصرف فيه ما لم يؤته إلا القلة النادرة من الفصحاء الأبياء..

من ذلك أنه كلم أمير "العراقيين" عمر بن هبيرة الفزازي في جماعة حبسهم فقال: أيها الأمير..

إن كنت حبستهم بالباطل، فالحق يخرجهم.. وإن كنت حبستهم بالحق، فالعفو يسعهم.. فأعجب بقوله، وأطلقهم كرامة له.

وعلى الرغم من كمال مروءة الشعبي وعلو منزلته في الدين والعلم، فقد كان عذب الروح حلو المفاكهة، لا يفوت النكتة إذا لاحت له.

وبعد، فقد عمر الشعبي حتى زاد على الثمانين. فلما لبي نداء ربه وتوفى سنة ١٠٤هـ، ونعي إلى الحسن البصري قال: "يرحمه الله فلقد كان واسع العلم.. عظيم الحلم.. وإنه من الإسلام بمكان".

قال مكحول: ما رأيت أعلم من الشعبي، وقال أبو حصين ما رأيت أحداً قط أفقه من الشعبي.

شرح بن الحارث الكندي - رضى الله عنه -

هو رجل "يمنى" الموطن، "كندى"^(١) العشيرة، قضى شطراً غير يسير من حياته في الجاهلية.

فلما أشرفت الجزيرة العربية بنور الهداية، ونفذت أشعة الإسلام إلى أرض "اليمن"، كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله، المستجيبين لدعوة الهدى والحق.

وكان عارفو فضله ومقدرو شمائله ومزاياه، يأسون عليه أشد الأسى، ويتمنون أنه لو أتيت له أن يفد على المدينة مبكراً ليلقى رسول الله ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، ولينهله من موارد الصافية المصفاة مباشرة لا بالوساطة.. ولكي يحظى بشرف الصحبة بعد أن حظى بنعمة الإيمان.. وبذلك يجمع الخير من أطرافه.. والعلم من جوانبه.. ولكن ما قدر كان.

ولم يكن الفاروق رضوان الله عليه، متعجلاً حين عهد بمنصب من مناصب القضاء الكبرى لرجل من التابعين، على الرغم من أن سماء الإسلام كانت يومئذ ما تزال تتألق بالنجوم المتألئة من صحابة رسول الله ﷺ... فقد أثبتت الأيام صدق فراسة عمر، وصواب تدبيره.

إذ ظل شريح يقضى بين المسلمين نحواً من ستين عاماً متتابعة من غير انقطاع.. وقد تعاقب على إقراره في منصبه كل من عمر، وعثمان، وعلى، ومعاوية رضوان الله عليهم أجمعين.

كما أقره على ذلك من جاء بعد معاوية من خلفاء بني "أمية"، حتى طلب الرجل إعفائه من منصبه إبان ولاية الحجاج.

وكان قد بلغ السابعة بعد المائة من حياته المديدة الرشيدة الحافلة بالمفاخر والمآثر^(٢).

ولقد ازدان تاريخ القضاء في الإسلام ببدايع من مواقف شريح، وزها بروائع

(١) كندی العشيرة: منسوب إلى كنده (بكر الكاف وسكون النون) وهي قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء.

(٢) المآثر: الأفعال الحميدة ذوات الآثار الجليلة.

من انصياح^(١) خاصة المسلمين وعامتهم لشرع الله الذي يمثله شريح، ونزولهم عند أحكامه.. وامتألت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل القذ وأخباره، وأقواله وأفعاله.

رضى الله عن الفاروق، فقد زان مفرق^(٢) القضاء في الإسلام بلؤلؤة كريمة الأعراق.. صافية الجوهر.. رائعة المجتلى.. وحبا^(٣) المسلمين مصباحاً منيراً، مازالوا حتى اليوم يستضيئون بسنا فقهه لشرع الله.. ويهتدون بنور فهمه لسنة رسول الله.. ويباهون به الأمم يوم القيامة.

ورحم الله شريحاً القاضى، فقد روى عن عمر وعلى وابن مسعود وتوفى سنة ٧٨هـ بعد أن أقام العدل بين الناس ستين عاماً.

* * *

(٢) المفرق: مفرد وجمعه مفارق... ومفارق القضاء: وجوهه الواضحة.

(١) الانصياح: الاتباع.

(٣) حبا المسلمين: منح المسلمين.